المغرب خلال مرحلتي ما قبل التاريخ وما قبيل التاريخ

سمير أيت أومغار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض، مراكش

نهدف من خلال هذه المُحاضرة إلى مقاربة الخصوصيات التاريخية والثقافية لمرحلتي ما قبل التاريخ وما قبيل التاريخ في المجال المغربي، وذلك انطلاقا من بعض القضايا والإشكاليات، بعيدا عن المسح الكرونولوجي للمرحلتين، وما يتطلبه ذلك من تتبع لكافة التغيرات البيئية والاجتماعية والتقنية. وسنركز هنا على ثلاث قضايا أساسية هي: ظهور الإنسان المنتصب القامة (Homo erectus) خلال العصر الحجري القديم الأسفل ثم تطوره فيما بعد إلى الإنسان العاقل أو الحديث (Homo sapiens) خلال العصر الحجري القديم الأوسط، فضلا عن تقديم بعض الشواهد الأثرية الدالة على وعي الإنسان العاقل بهويته الاجتماعية والثقافية، لننتهي في الأخير إلى عرض الخصوصيات الفنية والتقنية للفن الصخري بالمغرب وحدوده الكرونولوجية.

1. من الإنسان الأول إلى أقدم إنسان عاقل

صار من المؤكد اليوم، بفضل التنقيبات الأثرية، أن القارة الأفريقية كانت مهدًا للحضارات الإنسانية الأولى. فقد تم العثور في دولة التشاد بغرب أفريقيا على بقايا عظمية لأحد أسلاف الإنسان الأقدمين، تعود إلى حوالي سبعة ملايين سنة، وقد سادت القناعة لمدة طويلة لدى كافة المُتخصصين بأن الشرق الأفريقي شكّل الأصل الأول للجنس البشري. أما بخصوص المغرب، فقد أكدت الحفريات الأخيرة المنجزة في مقلع طوما 1 بالدار البيضاء **[اللوحة 1]**، والتحاليل المخبرية المنجزة على البقايا الأحفورية المكتشفة أن الإنسان المنتصب القامة (Homo erectus) عاش في المغرب منذ حوالي مليون و300 ألف سنة قبل الحاضر، مُقتربا بذلك من أقدم معالم الثقافة الأشولية التي ظهرت في أفريقيا الشرقية منذ مليون و800 ألف سنة قبل الحاضر، وفي أفريقيا الجنوبية ما بين مليون و600 ألف سنة ومليون سنة قبل الحاضر. ويعد بذلك، أقدم موقع أشولي في شمال غرب أفريقيا، وأقدم شاهد على الاستيطان البشري في المغرب.

اللوحة 1: مقلع طوما 1 بالدار البيضاء (© INSAP, Rabat)

وتحمل الأحافير البشرية للإنسان المنتصب القامة في المغرب بعضا من ملامح ما سوف يكون عليه الإنسان العاقل أو الحديث (Homo sapiens)، وهو ما يؤيد فرضية استمرار وجود الإنسان بالمغرب طيلة المرحلة الفاصلة ما بين العصر الحجري القديم الأسفل [من مليون و300 ألف سنة إلى 300 ألف سنة قبل الحاضر] والعصر الحجري القديم الأوسط [من 300 ألف سنة قبل الحاضر إلى 22 ألف سنة قبل الحاضر].

وتظهر نتائج الدراسة الحالية المرجعية بالنسبة لتقنيات الأشولي الأول بشمال إفريقيا، الترابط القوي بين مرحلة التمثل الذهني للأدوات ومرحلة صنعها والذي تحكمه قدرة هاته المجموعات البشرية الأشولية بالدار البيضاء، منذ مليون و300 ألف سنة، على توقع الشكل النهائي للأداة المراد تعديلها واعتماد حلول تقنية منتظمة لتصنيع أنماط مورفولوجية متكررة. التعامل المنضبط مع أنواع الصخور ساعد هاته الموجات البشرية الأولى في تبني حلول تقنية وتصور طرق بنيوية مبتكرة. وهكذا، فإن هذه المهارات التقنية التي تمكن العلماء من ضبطها تساعد في تحديد القدرات الإدراكية ومختلف المستويات المعرفية والتي تظل أساسية للتعرف على أولى مراحل التطور البشري بإفريقيا.

وبالانتقال إلى العصر الحجري القديم الأوسط، نجد عددا من العناصر الدالة على تطور الجنس البشري، سواء على المستوى الفيزيولوجي، أو الممارسات الاجتماعية، أو صناعة الأدوات الحجرية **[اللوحة 2]**.

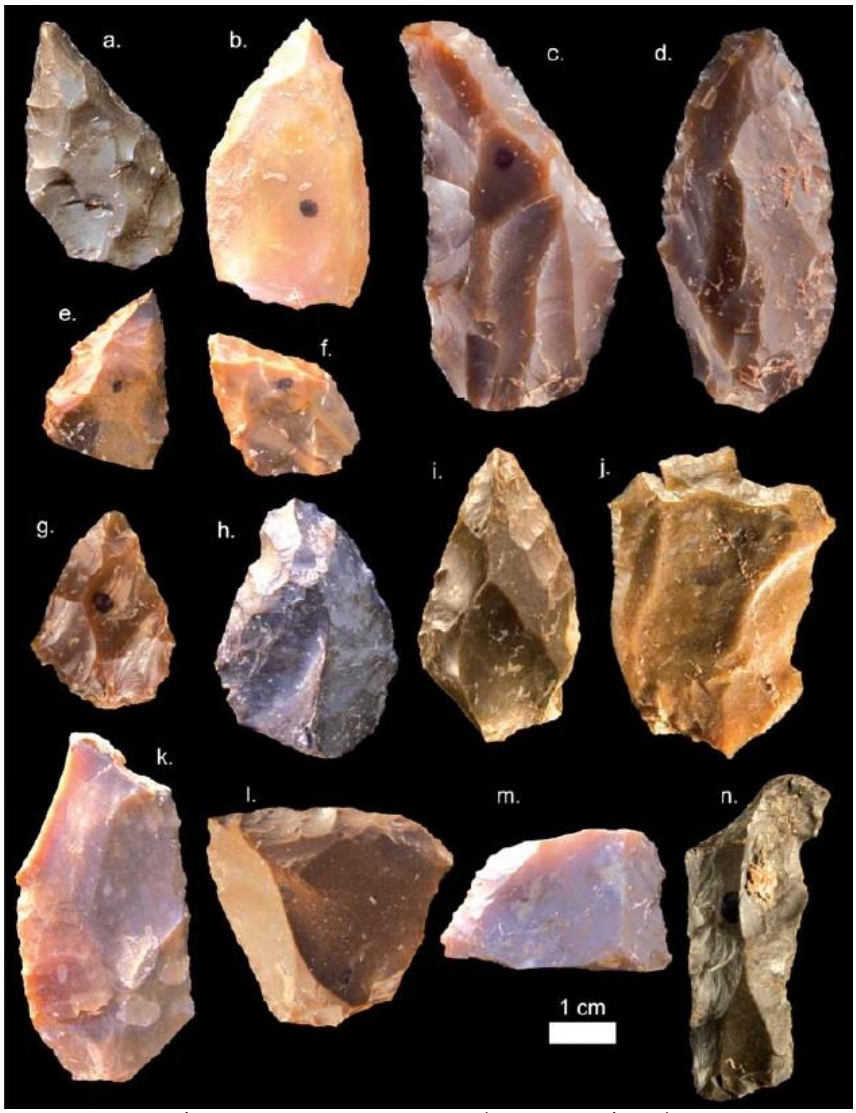

اللوحة 2: أدوات حجرية من العصر الحجري القديم الأوسط
(©Mohammed Kamal, INSAP-MPI EVA Leipzig)

وقد تَأتّت أبرز الاكتشافات المتعلقة بهذه المرحلة من جبل إيغود، الكائن على بعد سبعين كليومترا شرقي مدينة أسفي وخمسين كيلومترا جنوب غرب مدينة اليوسفية. فمنذ بداية ستينيات القرن العشرين، اكتشفت مجموعة من الجماجم والبقايا العظيمة البشرية، فضلا عن أحافير الحيوانات التي كان يتم اصطيادها، والمتشكلة في القسم الأكبر منها من عظام الغزال، والأدوات الحجرية. وقد اعتبرها إميل نوشي (Emile Ennouchi) حينئذ بقايا عظمية لإنسان نياندرتال (Néandertal). لكن الدراسات اللاحقة بيّنت عدم صحة هذا التأويل، مؤكدة ارتباط تلك الأحافير بالإنسان العاقل البدائي. وإلى جانب هذا الالتباس في تحديد هوية قاطني جبل إيغود خلال العصر الحجري القديم الأوسط، لم تتوفر للباحثين منذ ستينيات القرن العشرين الوسائل العلمية والتقنية الكافية والدقيقة لتأريخ المستويات الأثرية والأحافير البشرية، الشيء الذي حال دون ضبط تاريخ الموقع، والذي كان يُستخدم كمأوى لمجموعات كانت تمارس الصيد، وتبحث بشكل مستمر عن الطرائد والماء والمأوى فضلا عن الصّوان لصنع مختلف الأدوات الضرورية للحياة اليومية.

انطلاقا من هذه الإشكاليات المطروحة، توجه فريق علمي يقوده الباحثان عبد الواحد بنصر وجون جاك هوبلان، بشراكة بين المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط وقسم الأنثروبولوجيا التطورية بمعهد ماكس بلانك في لايبزغ، للبحث عن إجابات بخصوص تاريخ المستويات الأثرية، فضلا عن التنقيب عن أحافير بشرية جديدة قد تقدم مزيدا من المعطيات بخصوص إنسان إيغود. وقد اكتشفت البعثة في هذا الصدد أقدم البقايا العظمية المنسوبة إلى الإنسان العاقل (Homo sapiens) في صيغته القديمة ويقدر تاريخها بـ 300 ألف سنة قبل الحاضر **[اللوحة 3]**، وتعتبر هذه البقايا العظمية أقدم آثار للإنسان العاقل في العالم، مُتجاوزة بذلك Omo I و Omo II المكتشفين في Omo Kibish بإثيوبيا والمُؤرخين بحوالي 195 ألف سنة قبل الحاضر، وبقايا الإنسان العاقل في Herto بإثيوبيا والمؤرخة بـ 160 ألف سنة قبل الحاضر.

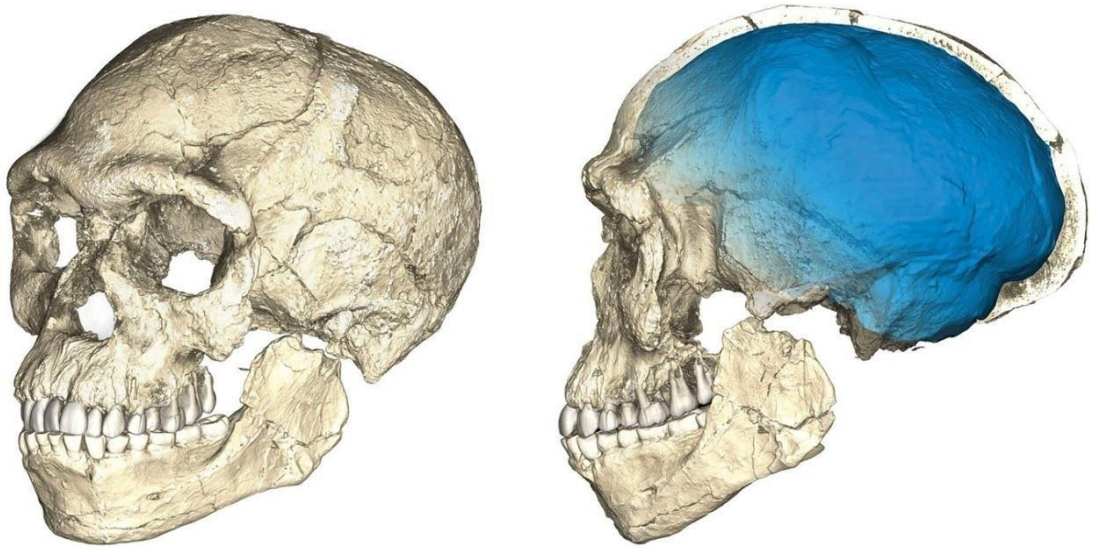

اللوحة 3: مقطع وصورة ثلاثية الأبعاد لجمجمة إنسان إيغود: أقدم إنسان عاقل في العالم
(© Freidline, INSAP-MPI)

وقد وضع هذا الاكتشاف حدًا للفكرة القائلة بتطور بشري خطي مصدره شرق أفريقيا، وبالتالي نهاية نموذج الأصل الشرقي الأفريقي للإنسان العاقل، وذلك بعدما ظلت منطقة شمال أفريقيا على هامش النقاش العلمي الدائر حول أصل النوع البشري الحالي. وتجدر الإشارة إلى تميز المرحلة التي عاش فيها رجال جبل إيغود، بغياب الصحراء الحالية، والتي لم تكن موجودة حينئذ، وهو ما سهّل التنقل والاتصال بين المنطقة المغاربية وبقية القارة الأفريقية.

2. الإنسان العاتري والسلوك الرمزي

ينقسم العصر الحجري القديم الأوسط إلى حضارتين اثنتين هما: الحضارة الموستيرية، وهي الوجه الأقدم في العصر الحجري القديم الأوسط، والحضارة العاترية وهي الأحدث زمنيا مقارنة بالأولى. وتتميز هذه المرحلة الثانية، بابتكار الإنسان العاتري أولى التعبيرات الرمزية أو الفنية، والمتمثلة أساسا في مصنوعات للزينة وشظايا مخرومة من وسطها، وكذا في استعمال المُغرة الحمراء (وهي صباغة طبيعية غنية بأوكسيد الحديد). وحسب المتوفر من المعطيات، فقد ظهر هذا السلوك في جنوب أفريقيا منذ حوالي 75 ألف سنة، وتجلى في استعمال أدوات الزينة والحلي. أما في المغرب، فالمثال الوحيد لأدوات الزينة العاترية الذي نعرفه على وجه اليقين حتى الآن هو عبارة عن أصداف بحرية مخرومة في وسطها أو في قسمها العلوي من نوع (Tritia gibbosula). وقد تم اكتشاف هذه الحلي في مغارة الحمام بتافوغالت (في منطقة بركان)، وفي مغارات المناصرة والهرهورة والمُهرّبين، لكن أقدم نموذج لها في المغرب والعالم ككُل هو ذاك الذي اكتشف حديثا في مغارة بيزمون بجبل الحديد على بعد 15 كلم شمال شرق مدينة الصويرة، ضمن مستوى أثري مؤرخ بالمرحلة الممتدة ما بين 142 و150 ألف سنة قبل الحاضر، مُتجاوزا بذلك النماذج المكتشفة في المشرق والمؤرخة بحوالي 135 ألف سنة قبل الحاضر، وتلك العائدة إلى حوالي 76 ألف سنة قبل الحاضر في جنوب إفريقيا. وتتمثل المكتشفات المذكورة في مجموعة من الأصداف البحرية المخرومة **[اللوحة 4]** من أجل تسهيل ربطها ببعضها البعض وتعليقها على أعضاء الجسم أو الملابس. ويدل استعمالها كحلي مُعلقة على سُلوك رمزي لدى أسلافنا من فئة الإنسان العاقل، كما يتم تأويلها في بعض الأحيان كتعبير عن الهوية الاجتماعية والثقافية لحَامِليها. وعموما، تعتبر أدوات الزينة عاملا فاصلا في نعت مجموعة بشرية ما قبل تاريخية بـ "الحديثة".

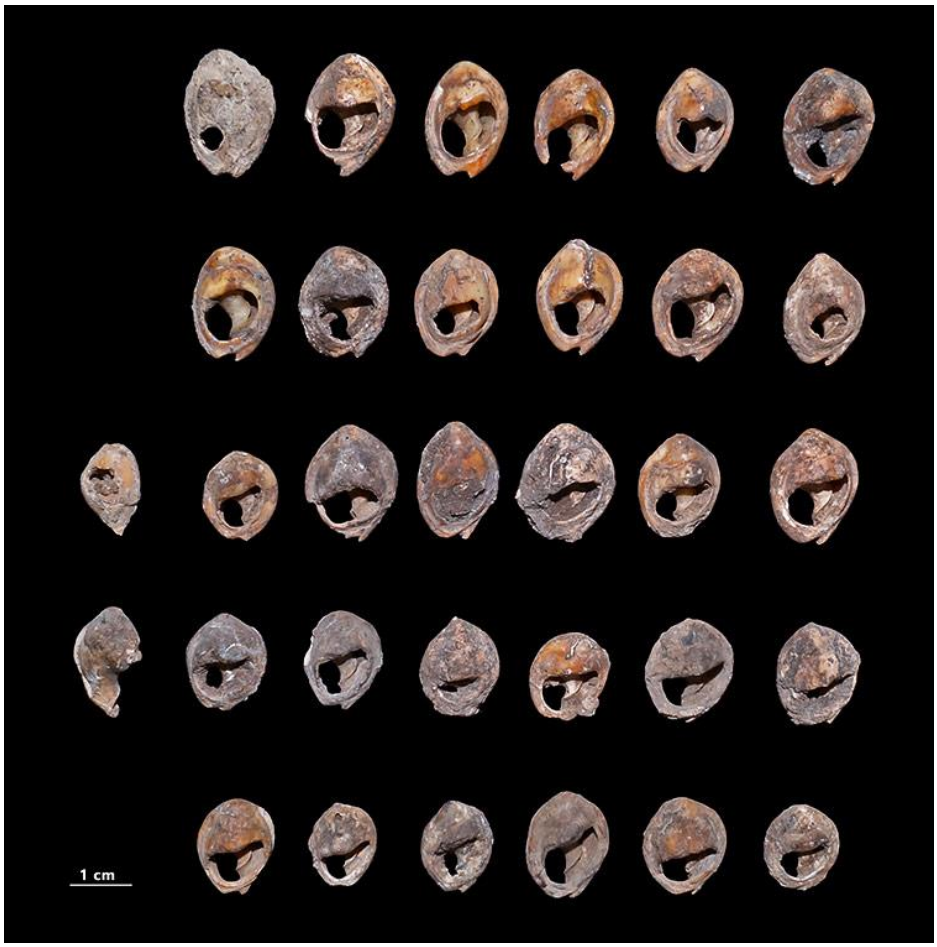

اللوحة 4: عناصر الزينة المُكتشفة في مغارة بيزمون، والمؤرخة بحوالي 000 150 سنة قبل الحاضر
(© A. Bouzouggar, INSAP)

3. الفن الصخري

يتكون الفن الصخري من مكوّنين أساسين هما: النقوش الصخرية والرسوم الصخرية، وقد أنجزت معًا من قبل الإنسان خلال حقبة ما قبل التاريخ ومرحلة ما قُبيل التاريخ **[اللوحة 5]**، بل، واستمر إنجازها في بعض المناطق طيلة الحقبتين الوسيطية والحديثة، كما هو الشأن بالنسبة لمواقع منطقة بوطروش في إقليم سيدي إفني. وقد كان هذا الفن حينئذ وسيلة للتعبير عن فكر الإنسان وثقافته وعقيدته قبل ظهور الكتابة، وأحيانا بعدها، بدليل مجاورة عدد من الكتابات الليبية لنقوش الحيوانات البرية أو المُدجنة.

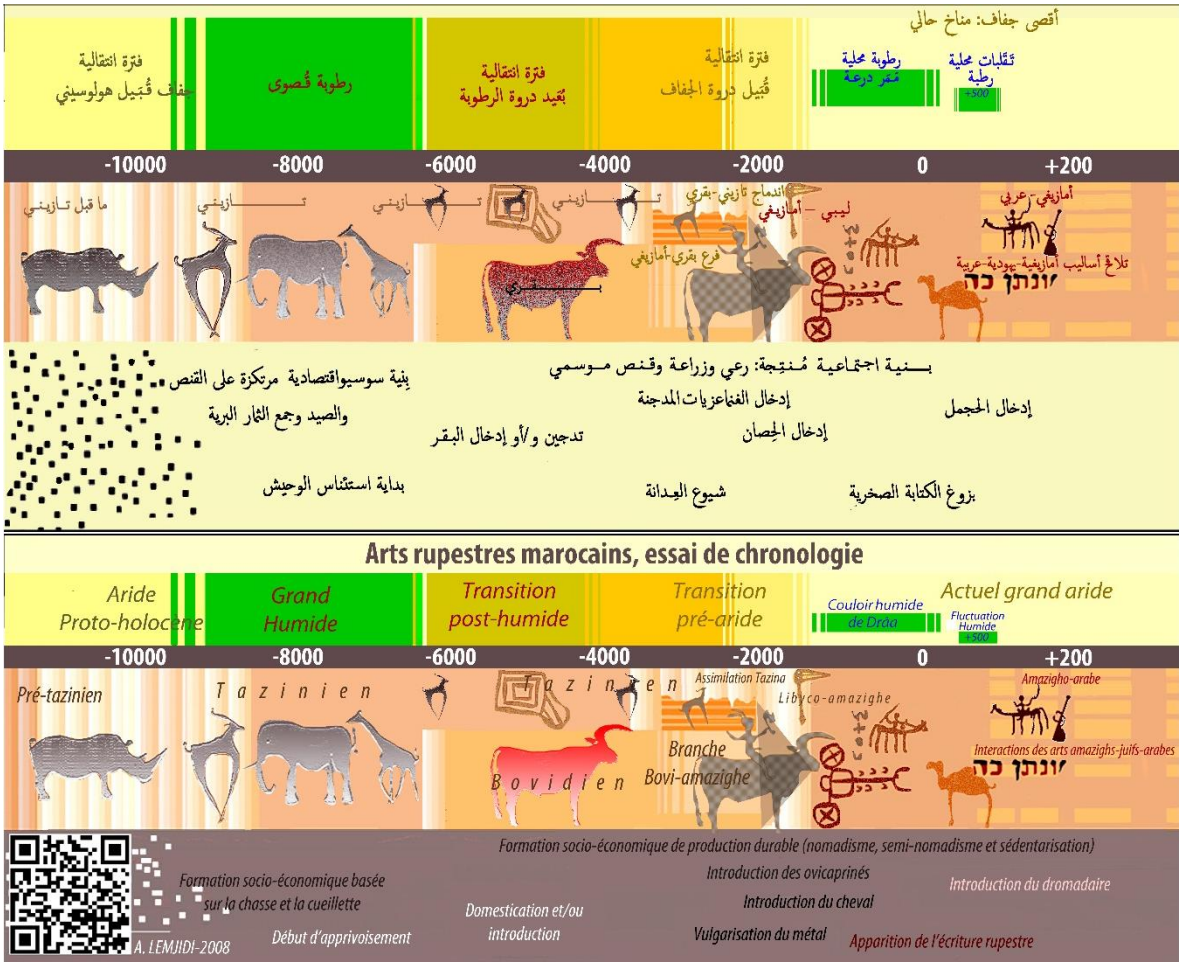

اللوحة 5: مُقترح سلم كرونولوجي لتطور الفنون الصخرية في المغرب
(© Centre National du Patrimoine rupestre, Agadir)

وتعكس هذه الرسوم المنقوشة والمرسومة جزء من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية للإنسان القديم الذي أنجزها، كما توفر معطيات حول الوسط الطبيعي الذي كان يعيش فيه. فمن خلال تحديد أجناس الحيوانات الممثلة، مثل البقريات والزرافات والخيليات ووحيدات القرن والفيلة والنعامات، إلخ، والتغيرات الطارئة عليها عبر الزمن [مثل التمثيل من عدمه، والكثافة على مستوى اللوحات المنقوشة]، يمكن تحديد ملامح المناخ والغطاء النباتي السائد في المنطقة التي تتركز بها مواقع الفن الصخري.

وتعود الاكتشافات الأولى لهذا التراث بالمغرب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد تم إلى حدود اليوم جرد أكثر من 340 موقعا موزعا على مجموع التراب الوطني. وتوجد هذه المواقع في أغلب الأحيان في الهواء الطلق على ضفاف الأنهار وبالهضاب العليا. ويمكن تقسيمها حسب موقعها الجغرافي إلى ثلاث تجمعات كبرى هي **[اللوحة 6]**: جبال الأطلس الكبير [مثل مناطق أوكيدمن، الياگور، وجبل رات]، والمجالات شبه الصحراوية [مثل ضفاف وادي درعة وروافده مثل واد تمنارت، واد أقا، واد الصياد...]، والصحراء الأطلنطية المغربية [مثل الساقية الحمرا، أوسرد، وفگيگ...].

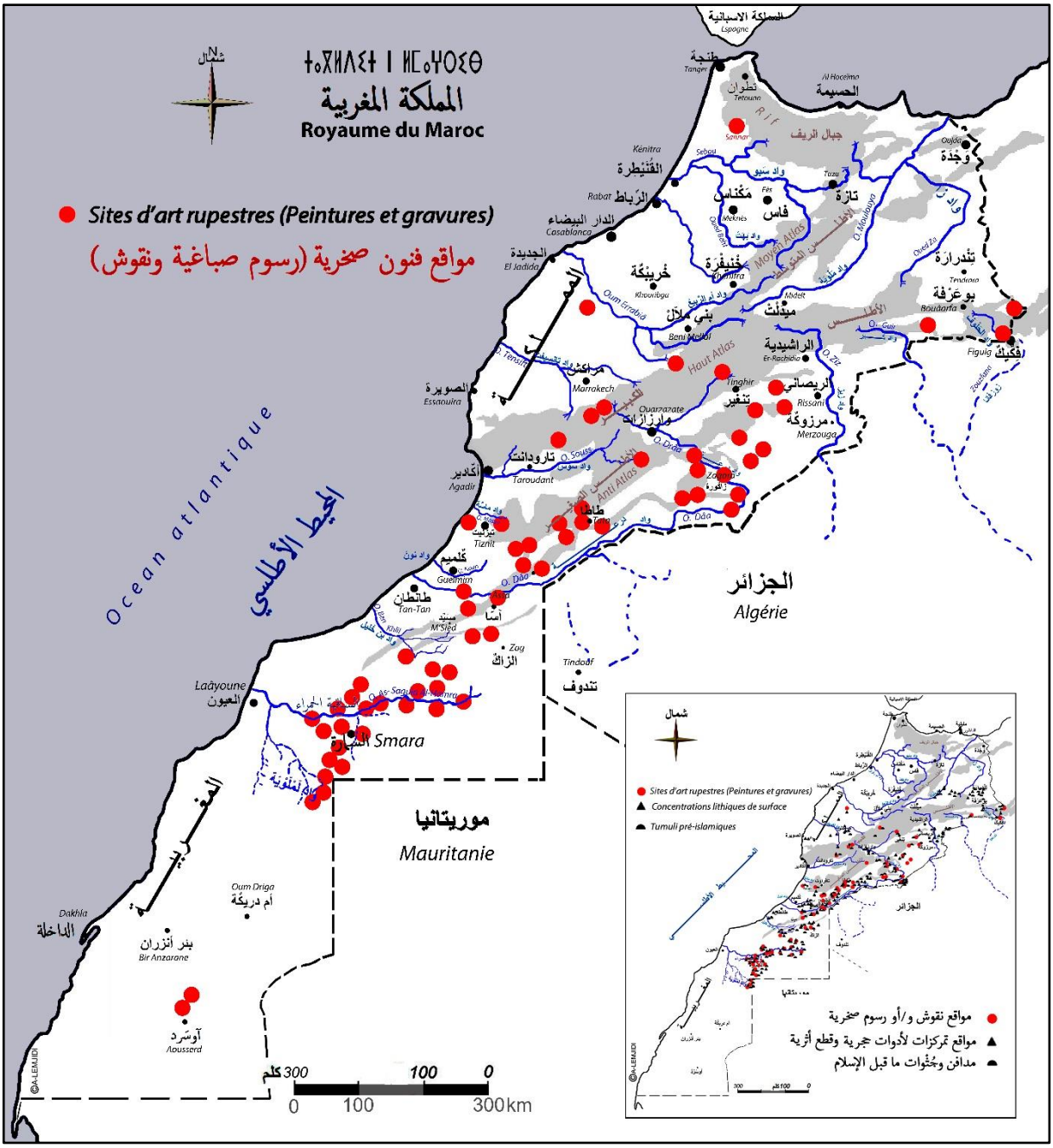

اللوحة 6: خريطة توزع مواقع الفن الصخري في المغرب
(© Centre National du Patrimoine rupestre, Agadir)

أما بخصوص تأريخها، فيظل صعبا، لعدم توفرنا على أية معطيات مادية تمكن من تأريخها مباشرة، إلا في حالات نادرة جدا. وتبقى دراسة التطابق بين النقوش الصخرية ولون زنجرتها [أي اللون الذي تتخذه الصخور مع مرور الزمن، بسبب البروز التدريجي لأملاح الحديد والمنغنيز التي تتأكسد مع السطح مكونة ما يشبه القشرة] الوسيلة الوحيدة لوضع تسلسل زمني نسبي لنقوش تنتمي إلى نفس الموقع. أما بخصوص الطرائق المعتمدة لإنجاز النقوش الصخرية فتتمثل في الحزّ أو النقر الخفيف أو بواسطة الطرق، ثم تلي ذلك عملية الصقل **[اللوحة 7 و8]**. بينما استخدمت في الرسوم الصخرية [والتي لا يتجاوز عدد مواقعها العشرين] أصباغ طبيعية كان البعض منها يُصنع من أكسيد الحديد للحصول على اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي، أو من أكسيد المنغنيز والفحم للحصول على اللون الأسود، أو من الطين والجبس للحصول على

اللون الأبيض والألوان الفاتحة. وتتم عملية الرسم بواسطة الأصبع أو "فرشاة" رقيقة. وتتركز أغلب الرسوم الصخرية في الصحراء الأطلنطية وإقليم طانطان والجهة الشرقية وجنوب الأطلس الكبير.

اللوحة 7: نقش صخري لعربة بعجلتين، هضبة الياگور، الأطلس الكبير
(© Abdelhadi Ewague, FLSH, Agadir)

اللوحة 8: نقش صخري لخنجرين برونزيين، هضبة الياگور، الأطلس الكبير
(© Abdelhadi Ewague, FLSH, Agadir)

وفي ضوء ما توصلت إليه الدراسات العلمية، لا يمكننا أن ندّعي وجود تصنيف صارم للفن الصخري بالمغرب، لكن هناك من اقترح تقسيمه إلى أربع مراحل أو أطوار متعاقبة زمنيا هي: الجاموسية والبقرية والخيلية والإبلية. ومن الباحثين من حاول تصنيفه انطلاقا من الأساليب المستعملة في نقشه، وهي: الأسلوب الجاموسي الطبيعي، وأسلوب تَزِنا، والأسلوب البقري والأسلوب الاختزالي. ومنهم من ارتقى به إلى درجة وسْمِه بالمدارس، معتمدا في ذلك على نوع الوحيش الماثل على اللوحات الصخرية، فميّز بين المدرسة الجاموسية الطبيعية بناء على كثرة اللوحات الصخرية الخاصة بهذا الحيوان، وإن كانت حيوانات أخرى قد تمّ نقش صورها إلى جانبه مثل الفيلة والزرافات وأفراس النهر، ومدرسة تَزِنَا (أو الجاموسية الاختزالية) ومدرسة المُحارب الليبي، والذي يظهر في عدد من اللوحات مُسلحا بدرع أو رمح، وممتطيا ظهر حصانه. وقد تم التأريخ للمدرستين الأولى والثانية، وهما الأقدم من الناحية الكرونولوجية، بالعصر الحجري الحديث، بينما أرخت المدرسة الثالثة وهي الأحدث، بمرحلة ما قُبيل التاريخ.